من تراب الطريق ! (٧٠٤) وداع إلى لقاء ! (*)

أمضيت ليلة ١٥/ ١٦ أغسطس ، فى سهادٍ لم أقاومه ، بل استسلمت له راغبًا فيه ، فقد ألمّ بى هاتف الموت ، يلح بأنه يقترب من شقيقتى سلوى التى ترافقنا فى درب الحياة معًا بفارق فى السن لا يزيد على العام إلاّ قليلاً .. تركتها بنهاية يوم الجمعة ١٥ أغسطس وهى على إيمانها البطولى بأن تترك حياتها للخالق البارئ لتكن مشيئته ، وأن تفارق بلا مقاومة ، حتى أنها أخفت عن الجميع النبأ الذى دهمها من عام بأن المرض اللعين قد أنشب أظافره فيها ، ولم تسرب خبره للطبيب السبت الماضى إلاّ بعد أن استحلفته أن يكتمه ولا يخبر به أحدًا ، مؤكدة عليه أن يحجبه بالذات عنى إشفاقًا علىّ ممّا ترى أننى مثقل به من مسئوليات وشواغل وهموم ، بيد أنه لم يستطع أن يسايرها فأسرّ إلىّ بالنبأ الأليم ، وحرصت على ألاّ تحس بأننى علمت بخبره؛ بينما مضت هى تستقبل زحف الموت القادم فى شجاعة وصبر وإيمان .

فى سهادى ، دارت بى الخواطر ، فجعلت أسترجع كلمات الخيام التى أعاد أحمد رامى نظمها نظمًا جديدًا حين ترجمها إلى العربية ، ويستوقفنى قوله:

لبست ثوب العيش لم أُستشر
وحرت فيه بين شتى الفكر

(*) المال فى ٢٠١٤/٨/١٧

وسوف أنضو الثوب عنى

ولم أدرك لماذا جئت أين المفر !

بدت لى الأبيات تترجم من حال كل حىّ يعرف أنه لا بد أن يفارق ، وأنه سوف يتساوى فى الثرى راحلٌ غدًا وماضٍ من ألوف السنين ، وبدا لى وقد غمرتنى ذكريات الآلام التى تلاحقت على مدار العام برحيل عدد كبير من الأحباب ، أن من يسبق منا إلى دار البقاء ، أوفر حظًّا ممن يمتد به حبل الحياة فينفطر قلبه على رحيل الأحباب ، حبيب إثر حبيب .. وهو رحيل يتلاحق لرفاق الدرب فى رحلتنا العمرية .. فهاتف الموت يحوم ويقترب ليأخذنا واحدًا تلو الآخر . لست أخاف الموت خوفى من فراق الأحباب الذين طفقوا يغادرون الحياة الدنيا تباعًا ، فانفطر قلبى ولم أستطع له دواء مع تلاحق الفراق ، ووجدتنى فى سهادى وقد غمرنى شعور قوى بأن شقيقتى تفارق ، وبأن ألم الفراق وأنين الأحزان يحومان من حولى ، ولم أستطع كتمان أنينى إلاّ باللياذ إلى رحاب الوارث الباقى قيوم السموات والأرض ، فوجدتنى أكتب على الفيس بوك عند منتصف الليل ..

لا حول ولا قوة إلاّ بالله

ونعم بالله ..

فأمطرنا يا إلهى برحماتك وألطافك ومننك .. يا رب .

حين دق رنين المحمول فى السادسة صباح السبت ١٦/ ٨ وعلى شاشته اسم ابنتى الصغرى منّ ، أيقنت أنها تحمل إلىّ النبأ الذى غمرنى فى سهادى طول الليل ، وللأسف كان !

أعلم أن الموت نهاية كل حىّ ، ولكن ألم الفراق موجع ، تستحضره الذكريات التى ولّت ومعها صورة وحديث ودفء محبة وعطر مودة من رحل ومعه كل هذا المخزون الذى حَلَت به وتجملت الحياة وتعطرت الأيام، فإذا بها وقد أجدبت وجفّت الينابيع وأسدل الستار على حياة حافلة !

نعم ، كانت حياتها ـ رحمها الله ـ حافلة بالمثالية وعشق الحق والصواب، والاحتمال فى كرامة وعزّة ، والعطاء لمن حولها دون أن تشكو من أحدٍ انصرافًا أو فتورًا أو توانيًا ، وتقول لمن يغضب لشىء من ذلك من فلذات كبده : « لا تشكو ولدك ولا زرعك » .. قيض لها أن تعيش اثنين وعشرين عامًا بعد رحيل زوجها الإذاعى الفنان الأديب المبدع سعد زغلول نصار ، فصبرت واحتملت فى جلدٍ وعزّة ، وبقيت شامخة عزيزة معطاءة كعهدها ، تغمر الجميع بأدبها الجم وأسلوبها الرفيع .

لقد استودعتها فى رحاب العزيز الباقى ، يملؤنى يقين بأنه سبحانه وتعالى سيُكرِم مثواها ، ويُنزِلها منازل الأخيار المحببين إليه من عباده .. أسأله ـ جلّ وعلا ـ أن يُسكِنها فسيح جناته ، وأن يهبنا الصبر والسلوى حتى نلقاها .

* * *